E- ISSN : 2571-9742

صورة أبو القاسم سعد اللّه التاريخية في ضوء تاريخ الجزائر الثقافي

أ.د. عبد القادر صحراوي
جامعة سيدي بلعباس
sahraoui1959@yahoo.fr

الملخص:

يعد أبو القاسم سعد الله أشهر المؤرخين الجزائريين على الإطلاق، وعرف عنه عمق التفكير ورصانة الكتابة ،وبحكم أن آراء سعد الله حول الكتابة التاريخية متعددة ومتشعبة، فإننا سنركز على اهتماماته بهذا الموضوع الذي يجلي صورته التاريخية من خلال مؤلفه "تاريخ الجزائر الثقافي" ، الذي خصص الجزء الكبير منه للجزائر خلال العهد العثماني.

الكلمات الدالة:

.أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر ، العهد العثماني

.Abstract:

The image of Abu Al Qasim Saad Allah through Algeria's cultural history. Abstract : Abul-Qasim Saadallah is the most famous Algerian historian ever, and he is known for the depth of thought and writing. As Saadallah's views on historical writing are numerous and complex, we will focus on his interest in this subject, which reflects his historical image through his book "Algeria's Cultural History". The large part of it was to Algeria during the Ottoman period.

Key words:

Abu al - Qasim Saadallah – History,,Algeria , Ottoman era

E- ISSN : 2571-9742
DM

يعد أبو القاسم سعد الله أشهر المؤرخين الجزائريين على الإطلاق، وعرف عنه عمق التفكير ورصانة الكتابة وقد ولد في سنة 1930 بقرية قمار في ولاية الوادي الجزائرية، ثم حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة قبل انتقاله إلى جامع الزيتونة بتونس التي نال منها شهادة الأهلية في سنة 1954. وفي سنة 1955 سافر إلى القاهرة بدعم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهناك تحصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية في سنة 1959 وشهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية في سنة 1962، وخلال نفس السنة انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث التحق بجامعة منيسوتا التي تحصل فيها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر.

عرف عن سعد الله نشاطه الفكري والسياسي، وهكذا كتب في العديد من المجلات والجرائد مثل "النهضة"، و"الأسبوع" التونسيتين، و"البصائر" التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكذا "الآداب اللبنانية".وخلال فترة دراسته بمصر، كان عضوا نشطا ومسئولا في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين والهيئات المختلفة لجبهة التحرير الوطني، وعلى إثر استرجاع الجزائر لحريتها، التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الجزائر في سنة 1967، وأنشأ بها قسما للدراسات التاريخية، وهو أول قسم يتم إنشاؤه منذ تأسيس جامعة الجزائر في 1909.

تعددت النشاطات العلمية لأبي القاسم سعد الله بفعل التزامه وجده العلمي والعملي، فقد تجاوزت مؤلفاته الأربعين كتابا، ناهيك عن عشرات المقالات التاريخية والأدبية في المجلات والجرائد الوطنية والدولية. ولعل عزوف الجزائريين عن تدوين تاريخهم وأحداثهم على مر الأزمان هو الذي دفعه إلى الكتابة التاريخية بما تحمله من متاعب ومشاق نفسية، وأخرى تتعلق بالمحيط الذي يعيش فيه المؤرخ خاصة منه المحيط السياسي.

1- أبو القاسم سعد الله والكتابة التاريخية:

على الرغم من الأعمال البطولية للجزائريين، إلا أنهم يعدون من الشعوب التي عزفت عن تسجيل تاريخها وتدوينه لمختلف الأجيال، ويشير سعد الله أن ذلك يؤدي إلى تراكم الضباب على تاريخ الأمة الجزائرية، وسعي أعدائها إلى مسخه وتشويهه[1]، ويعتقد أن الحساسية المفرطة عند الجزائري من النقد هو الذي تسبب في بعده عن الكتابة التاريخية، ذلك أن الجزائري بطبعه يرفض النقد ويعتبره نوعا من الشتم، وبالتالي فهو لا يريد أن يكون ناقدا حتى لا ينقد بدوره[2].وهناك من يتحجج بنقص الحرية،

E- ISSN : 2571-9742
DM

ولكن الحقيقة أن الكتابة التاريخية تتجاوز ذلك، فقد كتبت العديد من المؤلفات التاريخية في ظل العديد من السلط الظالمة والمستبدة بل في غياهب السجون، باعتبار أن الهدف من ذلك هو تسجيل الأحداث والمواقف لأجيال الأمة ولسائر الشعوب.

ولاحظ سعد الله أن الجزائريين مقلدون في تسجيل حوادثهم مقارنة بالشعوب الأخرى وهذا في جميع العصور، وتحكم عزوفهم عن التدوين التاريخي، وبالتالي لا يتعرف الأحفاد على تاريخ وحضارة الأجداد، إضافة إلى عدم مساهمتهم في الحضارة الإنسانية والرقي البشري. ولكي يدلل على توجهاته هاته، يبرز حقيقة تاريخية مهمة تتمثل في عدم اهتمام النخبة المثقفة بتاريخ الجزائر وثروتها، والاكتفاء برفع بعض الشعارات التي تحد من عظمة الثورة الجزائرية، مثل ثورة المليون ونصف المليون شهيد، والثورة من الشعب وإلى الشعب، في الوقت الذي كتب فيه المؤلفون الأجانب من المؤرخين وغيرهم مئات الكتب عن الثورة التحريرية الجزائرية. ويؤكد سعد الله أن الكتابة التاريخية ليست من عمل المؤرخين فقط، بل هي قدر مشترك بين جميع المواطنين، وبخاصة رجال الدولة والمناضلين القدامى والعسكريين والصحافيين والكتاب والأساتذة[3].

يقسم كتابة التاريخ إلى كتابة رسمية وأخرى شعبية، وهو لا يحبذ النوع الأول رغم انتشاره في بعض الدول وعند بعض الشعوب، ويشير أن الدولة مسئولة عن جمع المادة التاريخية وتوفيرها للباحثين، على أنه يستوجب على المناضلين تسجيل مذكراتهم، وهو نفس الدور المنوط برجال الدين والأدباء والصحافيين، وبالتالي تظهر مؤلفات لفئات اجتماعية مختلفة تساهم في النوع الثاني من الكتابة التاريخية ألا وهو الكتابة الشعبية[4].

ينتقل سعد الله إلى مسألة منهجية وعلمية مهمة، تتمثل في المؤرخ المؤهل وظيفيا وعلميا ومنهجيا لكتابة التاريخ، لكن يشترط لتحقيق ذلك توفر الحرية والوثيقة والموضوعية، أما إذا غاب شرط من هذه الشروط الثلاثة، فإن أبسط قواعد البحث العلمي تصبح مختلة، وبالتالي يصبح المؤرخ تابعا لحاكم مستبد أو لحزب معين أو ربما لدولة أجنبية[5].ويرى عدم ملائمة الظروف العامة للكتابة التاريخية، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود باحثين وطلابا يسعون إلى تدوين مختلف أحداث بلادهم، سواء صدعوا بالآراء التي تحملها هذه الأحداث، أو تركوها مكتوبة للأجيال اللاحقة[6].

2- الجزائر العثمانية من خلال كتاب تاريخ الجزائر الثقافي:

E- ISSN : 2571-9742
DM

بحكم أن آراء سعد الله حول الكتابة التاريخية متعددة ومتشعبة، فإننا سنركز على اهتماماته بهذا الموضوع الذي يجلي صورته التاريخية من خلال مؤلفه "تاريخ الجزائر الثقافي" الذي خصص الجزء الكبير منه للجزائر خلال العهد العثماني. وهكذا يظهر لنا بما لا يدع مجالا للشك أن سيطرة روح التصوف قد أضعف اهتمام الجزائريين بعلم التاريخ، ويستدل على ذلك بآراء كبار العلماء والرحالة من أمثال الورثلاني الذي يجزم بأن التاريخ منعدم عند أهل الجزائر[7].ومما أضر بعلم التاريخ أيضا ربط أحداثه بالأخبار والسير العامة والقصص الأدبية والمجون، ناهيك عن كونه تاريخ السياسيين والأمراء والملوك، الأمر الذي جعل الناس تنفر منه وتبتعد عنه[8].

وينتقل بنا بعد ذلك إلى بعض المفاهيم التاريخية عند العلماء الجزائريين الذين عاشوا خلال العهد العثماني، خاصة الفترة الممتدة من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثاني عشر. فهذا ابن المفتي يربط تعريف التاريخ بالدين الإسلامي والسيرة النبوية، ولذلك ركز رسالته على دراسة أخبار العلماء والباشوات والساسة[9].أما أبي الراس المعسكري فقد بين أن التاريخ تحفة المجالس، والمغني عن الأنس والمجالس[10]. ونظرا لأن التاريخ هو ذكر لقصص الأولين، فإن المهتم به وصف بأنه عالم الأخبار والسير، ويبرز الاهتمام بالتاريخ عند الورثلاني ودفاعه المستميت عنه، مدى تطلع سعد الله إلى تعميم دراسة التاريخ عند عامة الناس، انطلاقا من تعرض القرآن الكريم لأخبار الأمم السابقة، لعل الناس يعتبرون ويتعظون من الأحداث المدروسة.

ويعتبر سعد الله دراسة التاريخ دفع إلى المعالي من الأمور، ويشير إلى أن أكثر القرآن من علم التاريخ، حتى أن الذي يذم التاريخ يعد ذاما للقرآن[11]، ونستشف من هذا التوجه في دراسة التاريخ عند سعد الله، تشبعه بالروح الإسلامية والأصالة العربية، على الرغم من دراسته في الغرب، وبالتحديد في الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم يعود إلى تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، فيبرز اهتمام المؤرخين الجزائريين بكتابة التاريخ المحلي والتركيز على التراجم والرحلات، مبتعدين بذلك عن كتابة تاريخ عام للجزائر. ولعل الظروف السياسية والثقافية والحيز الجغرافي الذي كان يعيش فيه المؤرخ في العهد العثماني، هو الذي حال دون كتابته لتاريخ الجزائر، اللهم إلا إذا استثنينا الرحالة مثل الحسين الورثلاني الذي طاف بمعظم القطر الجزائري مسجلا أحداثه وتاركا آثاره للأجيال الجزائرية اللاحقة. ويشير إلى أن أحمد المقري وأبي

E- ISSN : 2571-9742
DM

الراس الناصري اللذان ركزا على تاريخ الأندلس لم يؤلفا كتابا واحدا خاصا بتاريخ الجزائر العام، أو حتى تاريخ العرب والمسلمين.

اعتمد المؤرخون وكتاب السير والرحالة في الجزائر خلال العهد العثماني على الأعمال الأدبية، من خلال شروح القصائد والأراجيز، مما يبرز حافظة المؤرخ أكثر من موهبته وذكاءه، وضمن هذا السياق نشير إلى رجز المفتي محمد الحلفاوي في فتح وهران الأول، وقصيدة أبي الراس في فتح وهران الثاني[12]، لكننا نذكر أن الأعمال التاريخية لم تكن مجرد قصائد أو أراجيز فقط، وإنما كانت أعمالا نثرية مثل كتاب ابن مريم التلمساني[13].وتتأكد صورة أبي القاسم سعد الله التاريخية عندما يقوم بإحصاء عام للكتب التاريخية، ويظهر نقص العديد منها، وضياع أجزاء كثيرة لبعض أمهات الكتب، ويؤكد أن الذين أرخوا للجزائر في العهد العثماني، لم يكونوا واعين أنهم يؤرخون للأحداث حسب مفهومنا الحالي للتاريخ، وإنما أرخوا لنقد ظاهرة سلبية كما فعل الإمام عبد الكريم الفكون في منشور الهداية[14]، أو يتبركون بالمترجم لهم كما فعل ابن مريم التلمساني. وعلى الرغم من هذه الملاحظات التي يبديها سعد الله، إلا أنه يؤكد على عدم الاستخفاف بما كتبه هؤلاء، ويدلل على ذلك بتناوله لسيرهم وكتاباتهم في المجالات التاريخية والجغرافية، إضافة إلى التراجم والرحلات وكتب التصوف وغير ذلك[15].

يتناول أبو القاسم سعد الله الكتب التاريخية وكتب السير والتراجم والرحلات من خلال ما سماه بالتاريخ العام والتاريخ المحلي، وهو يقصد بالتاريخ العام الظواهر التاريخية التي وقعت في منطقة واسعة أو خلال فترة زمنية طويلة، أما التاريخ المحلي الذي برع فيه الجزائريون أثناء الفترة العثمانية، فهو يخص جهة معينة من الجزائر دون بقية الجهات، أو حادثة معينة ميزت منطقة ما من القطر الجزائري.

وبخصوص التاريخ العام يقدم لنا كتاب نفح الطيب[16] الذي يعتبره كتابا موضوعيا عن تاريخ بلاد الأندلس الإسلامية بكل أحداثها من فتح إسلامي إلى إقامة الدولة الإسلامية، وما آنجر عنه من تقدم في العلوم والثقافة والفن، ويخص بالوصف أيضا الفظائع التي ارتكبها الإسبان بحق المسلمين، وعلى الرغم من بعض الانتقادات التي يقدمها لنا سعد الله عن نفح الطيب، إلا أنه يقر بثرائه وغزارة علمه، ولا يقل أبو الراس الناصري المعسكري[17]، علما عن صاحب نفح الطيب، فهو أيضا كتب عن الأندلس وربط ذلك بأهل المغرب، مركزا على فتح وهران الثاني الذي يصادف عصر المؤلف[18].

E- ISSN : 2571-9742

وبالانتقال إلى التاريخ المحلي، بعدد لنا أبو القاسم سعد الله مجموعة من المؤلفات التي تميز هذا النوع من التاريخ، وهو لا يريد أن يختار منها الجيد، بقدر ما يريد تحقيق الغرض الثقافي من عملية ذكر هذه الكتب المهمة في تاريخ الجزائر أثناء الحكم العثماني، ويشير في بداية هذا الأمر إلى كتاب العدواني[19] الذي أرخ للحياة السياسية والاجتماعية والدينية لمنطقة سوف وصحراء قسنطينة وغرب تونس وطرابلس خلال القرنين التاسع والعاشر الهجري، لكنه يبين أن المؤلّف محشو بالخرافات والأساطير.

وتبرز قصيدة الأخضر بن خلوف[20] حادثة مازاغران أهمية التاريخ المحلي، خاصة الأخبار التي تناولتها عن مدن وهران والجزائر ومنطقة ميزاب، وكذا حياة الإمام عبد الرحمان الثعالبي، ناهيك عن ذكرها للعلاقات بين الإسبان والمسلمين في بلاد المغرب، أما أبو علي إبراهيم المريني البجائي[21]، فقد تناول تاريخ بجاية خلال العهود الإسلامية والإسبانية والعثمانية، وأشار إلى دخول العثمانيين إلى المدينة في عهد صالح رايس في سنة 962 هـ، وركز المؤلف أيضا على تخريب الإسبان للمعالم الأثرية الإسلامية ببجاية[22].

ولا ريب أن تركيز سعد الله على تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ذا دلالات مهمة، ذلك أن مؤرخي الاستعمار الفرنسي حاولوا جاهدين محو كل أثر تاريخي للأمة الجزائرية، سواء تعلق الأمر بتاريخها القديم، أو تاريخها الإسلامي الذي يمتد على فترات طويلة، والذي يمثل أزهى المراحل التاريخية وأثراها على مر الدهور والأزمان.

الإحالات:

[1]– أبو القاسم سعد الله، عن الكتابة التاريخية، مجلة الثقافة، العدد 66، نوفمبر – ديسمبر1981، ص 05.

[2]– نفسه، ص 6.

[3]– نفسه، ص 7.

[4]– نفسه، ص 8.

[5]– نفسه، ص 8.

[6]– نفسه، ص 9.

[7]– الحسين الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، ص 597.

[8]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 322.

E- ISSN : 2571-9742

[9]– نفسه، ص 321.

[10]– أبو الراس محمد بن الناصر المعسكري، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، تحقيق سليمة بنعمر، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2002.

[11]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 323.

[12]– نفسه، ص 324 – 325.

[13]– ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب، تقديم عبد الرحمان طالب، د.م.ج، الجزائر، 1986.

[14]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

[15]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 326.

[16]– أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الفكر، دمشق، 1998.

[17]– أبو الراس محمد بن الناصر المعسكري، المصدر السابق.

[18]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 330 – 331.

[19]– نفسه، ص 331.

[20]– نفسه، ص 333.

[21]- Feraud (L. Ch), Conquête de Bougie par les espagnols, R.Af, 1868, pp 245 – 256.

[22]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 333 – 334.